الفصل السادس عشر

ابن خلدون وآراؤه في النقد والادب

كتب ابن خلدون مقدمة طويلة اراد بها في البداية ان يمهد لكتابه التاريخي الموسوم بـ (العبر وديوان المبتدأ والخبر) . وقد نالت هذه المقدمة اهمية كبيرة فاقت شهرة الكتاب الاصلي لانه اجمل فيها خلاصة آرائه فيما سماه بالعمران . وما يعرض للبدو والحضر وآراءه في التاريخ والجغرافية والاجتماع اجمع الدارسون على اهميتها وبيان اصالة آراء ابن خلدون فيها . وكان من جملة هذه الاراء التي اوردها ابن خلدون في المقدمة ما كتبه ابتداء من الفصل السادس والثلاثين حتى الفصل الخمسين من مباحث تتعلق بعلم النحو وعلم البيان وعلم اللغة وعلم الادب واللغة . وعن صناعة النظم والنثر وعن اشعار العرب في الامصار لعهده . وبذا ختم المقدمة بحديث عن الموشحات والازجال للاندلس ونجد ضمن هذه المباحث آراء اصيلة قيمة بشأن اللغة والادب ابرز في بعضها انفراده في بيان رأى او تفسير ظاهرة ما .. وبذا عده احد الباحثين (اعظم ناقد في هذا العصر رغم انه لم يزاول النقد الادبي(١) وسنحاول تتبع اهم ارائه او اهم ماتتناول دراسته فيما يخص الادب واللغة ..

---

(١) تاريخ النقد ٦١٦ (احسان عباس)

حد الشعر

نظر ابن خلدون الى تعريفات القدماء للشعر وحكم عليها بالقصور عن تعريف ماهية الشعر وحده . ورأى انه لم يقف على تعريف شاف لاحد من المتقدمين يمكن رسم الشعر او فهم حقيقته . اما تعريف قدامة بأنه الكلام الموزون المقفى فأبن خلدون يرى انه قول العروضيين وانه لايمثل تعريفا جيدا للشعر الذي يريد الحديث عنه لان صناعتهم فيه انما تنظر في الشعر باعتبار مافيه من الاعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة فلا جرم ان حدهم ذلك لايصلح له عندنا . فلابد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية .(٢) ثم قدم تعريفه الذي تصوره جامعا لحيثية الشعر وطبيعته وهو قوله : ـ

(الشعر هذا الكلام البليغ المبني على الاستعارة والاوصاف . المفصل في اجزاء متفقة في الوزن والروى . مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على اساليب العرب المخصوصة به .

ويقول متحدثا عن الشعر وانه موجود في سائر اللغات . وان لكل امة احكامها في البلاغة . اما الشعر في لسان العرب فهو (غريب النزعة . عزيز المنحى . اذ هو كلام مفصل قطعا قطعا متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة من هذه المقطعات عندهم بيتا ويسمى الحرف الاخير الذي تتفق فيه رويا وقافية . ويسمى جملة الكلام الى آخره قصيدة وكلمة .(٣) فشروط الشعر في هذين التعريفين تندرج فيما يلي : ـ

١ . بلاغة الشعر :

وهي ان يكون الشعر بليغا مبنيا على الاستعارة والاوصاف وقد عد هذه العبارة تحديدا لجنس الشعر (فقولنا الكلام البليغ جنس) وهذا يعني ان ابن خلدون اشترط جمالية الشعر المعروفة المعتمدة على الاستعارات والاوصاف وهو رأى فيه شيء من الجدة والطرافة لانه وان اخرج الشعر المنظوم الذي لاروح فيه كما فعل ابن قتيبة(٤) من قبل الا انه اضاف الى هذا وجوب توفر عناصر الجمال التي عرفها

---

(٢) المقدمة ٥٧٣

(٣) المقدمة ١ ـ ٥٩٩

(٤) الشعر والشعراء ١/ ٢٣ . اخرج ابن قتيبة من كتابة الاشعار التي نسبت الى بعض العلماء والقضاة ممن غلب عليهم غير الشعر او ممن صدرت عنهم الابيات المفردة المنظومة مثل ما نسب الى جلة التابعين وغيرهم من حملة العلم .

ابن خلدون من خلال استقصائه للشعر العربي وهي ان الشعر الجميل قلما يخلو من اشعار طريفة او تشبيه جميل ولهذا السبب وجدنا النقادقبل ابن خلدون قد اولوا التشبيهات عناية كبيرة كأبن طباطبا وقدامة بن جعفر والمرزوقي الذي جعل اصابة التشبيه احد مقاييس عمود الشعر العربي .

وما اهتمام هؤلاء النقاد بالتشبيات وبحثهم في طرائق الشعراء العرب فيها الا صدى لكثرة لجوء الشعراء اليها ليزيدوا اشعارهم بهاء وجمالا ويجسدوا الصورة التي يريدون وصفها تجسيدا يقربها باستخدام التشبيه او المجاز او الاستعارة وما الى ذلك من وسائل فنية وضع لها النقاد شروطا وتعسف بعضهم في سن قواعدها لئلا يخرج الشعراء عما هو مألوف متعارف عليه في مثل هذه الاساليب وهو مبحث سنجد له صدى في مباحث ابن خلدون ايضا . الا ان المهم هنا ان ابن خلدون جعل شرط عد الشعر شعرا مقرونا بمدى توافر الجمال والبلاغة فيه من تشبيهات او استعارات او اوصاف جميلة ملخصا رأيه بقوله مايخلو من هذه ـ يعني اوجه البلاغة ـ فأنه في الغالب ليس شعر .

ويرى احد الباحثين ان رأى ابن خلدون هذا جديد وجيد بالمفهوم الحديث لان مجرد الوزن والقافية لايتحقق به مفهوم متكامل للشعر والا اندرج تحته السرد الغث والكلام التقريري المباشر مادام موزونا مقفى وانه لكي يستحق الكلام وصف الشعر لابد فيه من البناء بالصور بتعبيرها الحالي(٥)

واذا تركنا جانب الاعجاب والعاطفة بطريقة تناول ابن خلدون لتعريف الشعر فأننا سنجد رأيه الذي جعل الشعر قائما على الاستعارة والاوصاف الجميلة ليس جديدا كل الجده . فقد مربنا في جملة التعريفات التي نقلها ابن رشيق للشعر وحده قوله .

(وقال غير واحد من العلماء ، الشعر ما اشتمل على المثل السائد الاستعارة الرائعة والتشبيه الواقع . وما سوى ذلك فأنما لقائله فضل الوزن)(٦) وعبارة ابن رشيق (غير واحد) توحي باقتناعه بأن ماخلا من الجمال الفني . استعارة او مثلا او تشبيها جميلا . فهو ليس بشعر . وانما هو نظم فحسب .

---

(٥) في اللغة ودراستها / محمد عيد ٣١

(٦) العمدة ١ / ١٢٢

ان توافر الجمال الفني والبلاغة في التشبيهات والاوصاف صارت في نظر ابن خلدون اهم الشروط الواجب توافرها ليكتسي الكلام صفة الشعر مع توفر النظم الذي لابد منه . وقد فصل في الحديث عن صور الجمال هذا في إحديثه عن صناعة الشعر واطلق عليه اسم الاسلوب الشعري المعتمد على الصورة الذهنية للتراكيب المنتظمة فلا يعد الكلام شعرا باعتبار قصد الشاعر افادة اصل المعنى فتلك وظيفة الاعراب . ولا باعتبار كمال المعنى من خواص التراكيب فتلك وظيفة البلاغة والبيان . ولا اعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه فتلك وظيفة العروض . وهذه العلوم الثلاثة الاعراب والبلاغة والعروض خارجة عن حد الصناعة الشعرية التي اراد ابن خلدون توضيحها لانه يرى ان ابداع الشعر (يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كحلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من اعيان التراكيب واشخاصها ، ويصيرها في الخيال كالقالب او المنوال ، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا)(٧)

وهنا ينظر ابن خلدون الى الاشعار على إنها نتاج فني معتمدا على الصورة الذهنية الجميلة ، وتكون هذه الصورة في ذهن الشاعر من خلال تربية ذوقه وملكته الشعرية بقراءة نصوص الشعر العربي الجيدة وحفظها وتأملها فاذا اراد رسم صورة او معنى من المعاني اعارته تراكمات الصور الذهنية التي رسخت في ذهنه او عقله عند تأمله الشعر العربي الاصيل

ان وضع ابن خلدون حد البلاغة للشعر جعله يميز بين الاساليب الشعرية والنثرية فاذا استخدم الكاتب الاساليب الشعرية في كتاباتهم ادخلوا عليها الحيف لان الامور التي تناسب الاساليب الشعرية- عند ابن خلدون- ليست مما يناسب الاساليب النثرية (ان الاساليب الشعرية تناسبها اللوذعية ، وخلط الجد بالهزل والاطناب في الاوصاف، وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حتى لاتدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب والتزام التقفية ايضا .(٨)

رأى ابن خلدون هذا في التمييز بين الشعر والنثر يتخصص الشعر بما سماه بالاساليب الشعرية يخالف رأى ابن طباطبا الذي نظر الى النتاج الأدبي سواء كان

---

(٧) المقدمة ٥٧٠

(٨) نفسه

شعراً ام نثرا نظرة متكاملة وان الشاعر المبدع هو الذي (يسلك منهاج اصحاب الرسائل في بلاغاتهم وتصرفهم الى ان يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة فيتخلص من الغزل الى المديح ، ومن المديح الى الشكوى ، ومن الشكوى الى الاستماحة ، ومن وصف الديار والاثار الى وصف الفيافي والنوق بألطف تخلص واحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله بل يكون متصلا به ممتزجا معه)(٩)

واذا كان ابن طباطبا هنا قد اكد حسن التخلص ووجوب توفره في اغراض الشعر ومعانيه ، وانها يجب ان تكون مثل الرسائل المحكمة البليغة في حسن تخلص اصحابها من المعنى المبتدأ به الى المعاني الاخرى فأن ابن خلدون نظر اليها نظرة مخالفة ايضا من حيث نفوره من نمط الكتابة الانشائية السائدة في عصره والتي اولع فيها الكتاب بالسجع والصنعة اللفظية والتزويق الظاهري ... وقد جعله هذا النفور مبالغا في عد الميزات الفنية خاصة بالشعر دون النثر ، ومحاولة منه لتخليص النثر من آثار الصنعة الشكلية التي بدأت تكبل اساليب الكتاب وتضع السلاسة والجمال في الاساليب وقد اخذ ابن خلدون عن شيوخه آراء وافقت هوى نفسه ، في طليعتها نظرة بعضهم بعين الاستهجان والاستهانة الى الاكثار من البديع فقد كان شيخه ابو البركات البلفيقي يتمنى لو ان الدولة تنزل العقوبة القاسية بمن ينتحل فنون البديع في نظمه او نثره او تعرضه للتشريد .. وانه قد طبق فعلا هذه الاراء في اسلوبه من الناحية العملية حين اختار الاسلوب المرسل وعد المحسنات اللفظية تكلفا في الكتابة الانشائية .(١٠)

٢ . استقلال كل جزء من اجزاء القصيدة في غرضه ومقصده عما قبله وبعده :

وقد ذكر ان في هذا التحديد (بيان للحقيقة لان الشعر لاتكون ابياته الا كذلك ولم يفصل به شيء) . وقد رأى محمد عيد ان تحديد ابن خلدون هذا بشأن استقلالية كل جزء منه في غرضه وقصده فكرة غير جيدة وغير مفيدة اذ مقتضاها مجموعة اجزاء مفرقة الاغراض والمقاصد بحسب كل بيت منها وهذا غريب وقد حمل محمد عيد ايضا هذه الفكرة تبعة فتح الباب واسعا للمتهجمين في عصرنا الحاضر على الشعر العربي القديم بالقول انه شعر مفكك الاوصال متناثر المعاني محطم الوحدة .(١١)

---

(٩) عيار الشعر ٦

(١٠) تاريخ النقد الادبي ٦١٦ ـ ٦١٧

(١١) في اللغة ومراسيها ٣٦

ان هذه الحملة على رأي ابن خلدون مردها أخذ نصه مقتطعاً عن آرائه الاخرى التي فصل فيها اكثر ، وبين فيها قصده من استقلالية الاجزاء في القصيدة والتي فيما يبدو لنا ـ لاتعني عنده على اي حال تفكك اجزاء القصيدة او انعدام الوحدة الموضوعية فيها ، انما يعني أكتمال المعنى الذي يريده الشاعر في البيت الواحد شرط تعلقه او مع وجوب تعلقه بالابيات التي سبقته او تلته .

لقد تحدث ابن خلدون عن صناعة الشعر ووجه تعلمه وعن شرط الوزن الذي يميز به الشعر عن النثر باعتباره جنسا من الكلام قائلا (اذا هو كلام مفصل قطعا قطعا متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير في كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتا ويسمى الحرف الاخير الذي تتفق فيه رويا وقافية ، ويسمى جملة الكلام الى اخره قصيدة وكلمة) .

بعد هذا تحدث ابن خلدون عن وحدة البيت الشعري بما يحمله من كمال المعنى في تر كيبه وبيانيه ضمن الوحدة الكلية للمقطوعة او القصيدة الكاملة بما ينقض التهمة الموجهه اليه في كلامه عن الشعر بأنه مفكك غير مترابط ، يقول (وينفرد كل بيت منه بافادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحدة مستقل عما قبله وما بعده ، واذا كان تاما في بابه من مدح او تشبيه او رثاء فيحرص الشاعر على اعطاء ذلك البيت ما يستقل في افادته ثم يستأنف في البيت الاخير كلاما آخر كذلك او يستطرد للخروج من فن الى فن ومن مقصود الى مقصود بأن يوطيء المقصود الاول ومعانيه الى ان تناسب المقصود الثاني يبعد الكلام عن التنافر كما يستطرد التشبيب الى المدح ، ومن وصف البيداء والاطلال الى وصف الركاب والخيل او الطيف ومن وصف الممدوح الى وصف قومه وعشيرته. ومن التفجع والعزاء في الرثاء الى التأثر وامثال ذلك .(١٢)

وتبدأ آراء ابن خلدون في هذه التفصيلات مقبولة مستنبطة من طبيعة الشعر العربي القائم على وحدة البيت في تمام معناه وشدة تعلقه بالابيات التي تليه ، وهذا ماعبر عنه النقاد والبلاغيون بحسن التخلص ، واجادة الشعراء تظهر في مقدرتهم على احكامه ومنح التنقل في المعاني بين الابيات الشعرية وحدة موضوعية تبدو فيها القصيدة متماسكة متعلقة المعاني بعضها ببعض وقد أكد هذا الرأي حين تحدث عن

---

(١٢) المقدمة ٥٦٩

الصناعة الشعرية وانها صعبة على المتأخرين من الشعراء لطبيعة الشعر العربي المعروفة التي هي (استقلال كل بيت منه بأنه كلام تام مقصود . ويصلح ان ينفرد دون ماسواه فيحتاج (الشاعر) من اجل ذلك الى نوع من تلطف في تلك الملكة حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب . ويبرزه مستقلا بنفسه ثم يأتي بيت اخر كذلك ثم بيت ويستكمل الفنون بمقصوده ثم يناسب بين البيوت موالاة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة) . وبهذا جعل ابن خلدون تمايز الشعراء في مراتبهم منوطا بمدى أجادتهم مناسبة معاني الابيات وربطها ربطا محكما في حسن تخلص على اختلاف في اغراض القصيدة الواحدة .

٣ . ان اخر شرط من الشروط الواجب توفرها في النص ليعده ابن خلدون شعرا هو وجوب كونه جاريا على سنن العرب المخصوصة به وقد بين ان مقصده من هذا التحديد هو فصل بينه وبين ما (لم يجر منه على اساليب العرب المعروفة فأنه حينئذ لا يكون شعرا انما هو كلام منظوم . لان الشعر له اساليب تخصه لاتكون للمنثور . وكذا اساليب المنثور لاتكون للشعر فما كان من الكلام منظوما وليس على تلك الاساليب فلا يكون شعرا) .

ان هذا الشرط الذي اشترطه ابن خلدون جعل د . احسان عباس يراه اهم جزء في تعريف ابن خلدون للشعر واشده غموضا لانه اخرج اشعار المتنبي والمعري وغيرهما(٣) والواقع ان ابن خلدون لم يخرج هذين الشاعرين العظيمين من قائمة الشعراء وفق رأيه فحسب وانما ذكر انه احد رايين سمعهما من شيوخه فكثير ممن لقيه من شيوخه في هذه الصناعة الادبية يرون ان نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على اساليب العرب . وقد ذكر ان هذا رأى عند من يرى ان الشعر يوجد للعرب وغيرهم . واما الرأي الاخر الذي نقله بشأن هذين الشاعرين الكبيرين فهو راى من يقول ان الشعر يوجد للعرب ولا يوجد لغيرهم . وبذا يكون شعر هذين الشاعرين مكانه الجاري على الاساليب المخصوصة . اما رأيه بوجوب كون الشعر جاريا على اساليب العرب فهو خلاصة رأي النقاد العرب القدماء الذي يمثل استمرارية نظرية عمود الشعر العربي التي اشار اليها الآمدي . واستقرت مقاييسها وسجلها المرزوقي فيما بعد . بعد ان اثيرت ضجة حول شعر ابي تمام

---

(٣) في اللغة ودراستها ـ محمد عيد ٣٢

الذي عد خارجا على عمود الشعر العربي لخروجه على المألوف من طرائق الشعراء في تشبيهاتهم واستعاراتهم وطرائق تعبيرهم عن المعاني .

والواقع ان ابن خلدون لم يخرج في هذا عما عرفه النقاد العرب من وجوب سير الشاعر على النهج القديم في صورة واخيلته وعودة واحد الى مقاييس عمود الشعر العربي تدلنا على رسوخ هذه الفكرة في الذهن العربي كما ان غرض ابن طباطبا من قبل في عرضه لضروب التشبيهات عند العرب هو تقديم مادة شعرية امام الشعراء يربضون بها اذهانهم ويوفرون في مخيلتهم صورا واخيلة استحسنها العرب من خلال شواهد شعرية جديدة فاذا اراد الشاعر نظم معنى من المعاني افادته هذه الثقافة القديمة والمعاني والصور والتشبيهات المتراكمة في الذهن . واعانته على نظم المعنى الذي يريد تصويره .. وهنا يبدو لنا رأى ابن خلدون جادا وداعيا لمفاهيم الشعر في الذهن العربي ،وانه استقاه من الثقافة الشعرية الاصيلة ولا يريد ـ فيما يبدو لنا ـ حجر الشاعر في قوالب جامدة جافة اما وضح ذلك بالشواهد والادلة التي تبين طرائق العرب في التعبير عن المعاني التي أكثر الشعراء في ذكرها فقد اعتادوا ان يكون لكل فن من الكلام اساليب تختص به . وتوجد فيه على انحاء مختلفة . (فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله (يادار مية بالعلياء فالسند) ويكون باستدعاء الصحب للوقوف على الاطلال كقوله (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) او بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله (ألم تسأل فتخبرك الرسوم) .. الخ من المعاني المعروفة لدى الشعراء)(١٤)

ويرى ابن خلدون ان الاجادة في التعبير عن هذه المعاني باستخدام الصور الذهنية لاتتم للشاعر بمعرفة قوانين البلاغة او قواعدها . لان هذه قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيأتها الخاصة بالقياس وهو قياس علمي مطرد كما هو الحال في معرفة قواعد الاعراب وما يجوز ايراده او لا يجوز من اساليب المرفوع والمنصوب ان معرفة قواعد البلاغة او مقاييس النحو والاعراب لاتمكن الشاعر من الوصول الى الصورة الذهنية الجيدة او الى التركيب الشعري الناضج الجيد انما يحصل له هذا نتيجة ملكته الشعرية المتأصلة .

---

(١٤) المقدمة ٥٧١

آراء ابن خلدون في ملكتي اللغة والشعر

تبدو آراء ابن خلدون في ملكتي اللغة والشعر من اهم آرائه في هذا المجال لانه نظر الى اللغة نظرة خالف فيها كثيرا من آراء العلماء في هذا الشأن فهو يرى ان اللغة ملكة صناعية يمكن ان تكتسب واكتسابها شروط وظروف يجب ان تتهيأ لها واذا كانت اللغة ملكة لسانية تعبر عن المعاني وجودتها وتصورها بحسب تمام الملكة المتحدث لتمام اداته فانما يمكن ان تكتسب وترسخ في ذهن المتكلم اذا عاش بين اهلها المتحدثين بها واخذها عنهم بالتكرار والمعايشة . والنظر في مفرداتها وتراكيبها فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام اهل جيله واساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم . كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معنيها فيلقنها اولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك . ثم لايزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة وفي كل متكلم . واستعماله يتكرر الى ان يصير ذلك ملكة راسخة ويكون كأحدهم(١٥)

بهذا الملتقى تتكون ملكة اللسان واللغة وبهذا التفسير فسر ابن خلدون قول العامة ان اللغة للعرب بالطبع . اي (بالملكة الاولى التي اخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم) .

فملكة اللغة يمكن تعلمها ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الكلمة ويروم تحصيلها ان يأخذ نفسه بحفظ كلامهم الجاري على اساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في اسجاعهم واشعارهم وكلمات المولدين ايضاً في سائر فنونهم .(١٦)

وما دامت الملكات اللسانية كلها تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم فكذلك ملكة الشعر يمكن ان تحصل وتكتسب فيقول ،

(واعلم ان فن الشعر من بين الكلام كان شريفا عند العرب . ولذلك جعلوه ديوان علومهم واخبارهم وشاهد صوابهم وخطأهم . واصلا يرجعون اليه في الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها حتى يحصل شبه في تلك الملكة والشعر من بين الكلام صعب المأخذ على من يريد ملكته بالصناعة من المتأخرين)(١٧)

---

(١٥) المقدمة ٥٥٤

(١٦) المقدمة ٥٥٩

(١٧) المقدمة ٥٥٩

وهنا يثير كلام ابن خلدون حيرة بشأن عده ملكتي الشعر واللغة من الملكات التي يمكن ان تكتسب بالتعلم .

فهل حقا يريد ابن خلدون هذا التفسير الظاهري الى ملكة الشعر ؟

وانه اغفل الموهبة والوعي ؟ وماذا يقصد ابن خلدون بالملكة . هل يقصد بها موهبة الشعر كما ذهب بعض الباحثين حيث قال :

(ويبدو ان الرجل اعتقد ان ماذكره عن اكتساب ملكة الشعر والحفظ كاف في صنع الشاعر المجيد وساعده على هذا الفهم نظرته كلها عن الكلام الصحيح او البليغ)(١٨) ايضاً (وحديثه عن ملكة الشعر هو في واقع الامر حديث عن أكتساب المهارة اللسانية لقول الشعر وادار حول هذا الجانب اللغوي وحده كل ارائه . واغفل جوانب اخرى خطيرة لازمة للشعر والشاعر وهي الموهبة والوعي)(١٩)

ويرى احسان عباس ان رأي ابن خلدون هذا غريب لانه ابطل الموهبة حين ذهب الى ان الملكة اكتساب خالص .(٢٠)

ان اعادة النظر في رأي ابن خلدون بشأن ملكتي الشعر واللغة تجعلنا نقول انه اكثر وعيا من ان يهمل الموهبة الشعرية وان يجعلها وليدة التعلم والاكتساب ولكن الذي جعل الباحثين يفهمون رأيه هذا الفهم كثرة تكراره له وجعله نظرية عامة تحكم رأيه في الملكات اللسانية جميعا حتى يخيل لمن يقرأ فصوله الاخيرة انه لايريد الا ما تبادر في ذهن الباحثين اللذين مر ذكرهما في هذا الشأن . ان اعادة النظر في آراء ابن خلدون واقواله تدلنا على انه لم يهمل الموهبة ولم يجعل قول الشعر منوطا بالتعلم والاكتساب . فحسب او بتعبير أكثر دقة انه لا يمكن ان نعقل ان يكون رأي ابن خلدون بشأن الملكة هو هذا الفهم القاصر الذي يلغي الموهبة والاستعداد ويجعل قول الشعر فرصة سانحة لكل من يريد اكتسابه وفق ظروف وشروط معينة . وهذا خلاف ماهو معروف عن مواهب الناس واختلافاتهم في المنحة التي وهبهم الله اياها .

---

(١٨) في اللغة ومراستها ٣٠

(١٩) نفسه

(٢٠) تاريخ النقد الادبي ٦٢٠

ان حديث ابن خلدون عن الملكة الشعرية ليس حديثا عاما في كل العصور وانما هو وليد القرن الثامن الهجري الذي وصفه بالبعد عن الكلام العربي الاصيل بكثرة الاختلاط بغير العرب . ودخول الكلمة الى اللسان العربي الا من حرص على تعلم كلام العرب وحفظه من موروثهم الادبي الاصيل . ليس هناك اي مسوغ لهذا الفهم بحيث تكون الملكة مرادفة للموهبة عند ابن خلدون . ان هذا الفهم ـ كما يبدو ـ قاصر عن فهم قول ابن خلدون وما نراه انه اراد بالملكة مايمكن النفس من تملك زمام قول الشعر (او ملكة الشعر) او ما يمكن المرء من تملك ناصية اللغة (ملكة اللسان) وانه لايريد بالملكة الا المعنى المعجمي من قولهم (ملك الشيء وهذا ملك يميني وملكه الشيء تمليكا اي جعله ملكا . يقال ملكة المال والملك .. وقولهم ما في ملكه شيء اي لايملك شيئا . وفيه لغة ثالثة مافي ملكته شيء بالتحريك عن ابن الاعرابي . يقال فلان حسن الملكة اذا كان حسن الصنع الى ماليكه)(٣١)

بهذا الفهم ـ اذا صح ـ يكون رأي ابن خلدون بشأن الملكات رأيا منسجما مع تفسيراته وتحليلاته الاخرى بشأن رياضة الشعر واللغة فحين يتحدث عن ملكة الشعر يريد بها تقوية ملكة موهبة الشعر لدى الشاعر او ملكة اللغة تملك الكاتب والبليغ لاحكام موهبة الكتابة لديه فالموهبة يجب ان تتوفر لدى المبدع كاتبا كان او شاعرا ثم يأتي دوره الشخصي في تهذيبها .

ودليلنا على توجيه رأي ابن خلدون هذه الوجهة مايلي :ـ

١. حين تحدث عن علم النحو وملكته في اللسان العربي ذكر ان (الملكة الحاصلة للعرب من احسن الملكات . واوضحها ابانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني من غير تكلف الفاظ اخرى . وليس يوجد ذلك الا في لغة العرب . واما في غيرها من اللغات فكل معنى او حال لابد له من الفاظ تخصه بالدلالة . ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم اطول مما نقدر بكلام العرب)(٣٢) ثم يؤكد كون ملكة النحو ومعرفة تراكيبه لدى العرب انما هي جزء من السنتهم غير محتاجين فيها الى صناعة وانما (هي ملكة في السنتهم يأخذها الاخر عن الاول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا) .

---

(٣١) الصحاح مادة (ملك

(٣٢) المقدمة ٥٤٦

ويفهم من هذا ان ملكة اللسان عند العرب ما كانت مكتسبة بالتعلم وانما تبدو وكأنها جبلة فيهم لتلقيها بشكلها الصحيح يأخذها الاخر عن الاول سماعا (والسمع ابو الملكات اللسانية)(٣٣)

١٠ يؤكد ابن خلدون كون ملكة اللغة ايضا من الملكات التي يمكن ان تكتسب وتنمي بالتعلم والسماع ولا يتم هذا بالنظر الى المفردات وانما تحصل الملكة التامة في تركيب الالفاظ للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال. وفي هذه الحالة يصل المتكلم الى ماعرف بالبلاغة (والملكات لاتحصل الا بتكرار الافعال. ثم يزيد التكرار فتكون ملكة اي صفة راسخة فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام اهل جيله واساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعابيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها اولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لايزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى ان يصير ذلك ملكة وصفة راسخة)(٣٤).

وهنا اكد ابن خلدون في موضعين في النص الواحد تفسير الملكة بالصفة الراسخة وهذا يفسر ايضا رأيه من ان الملكة عند المتأخرين قد فسدت عما كانت عليه عند العرب لان الصفة الراسخة في تملك اللغة باساليبها الصحيحة قد خالطها الفساد بسبب الاختلاط بأقوام اخرى غير العرب وسماع اساليب بعدت عن اللسان العربي الصحيح(٣٥) وسبيل ترسيخ الملكة وتأصلها لدى المتأخرين وحصولها صفة راسخة هو كثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خيال المتأخر المنوال الذين نسجت عليه العرب تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى تحصل له الملكة المستقرة في التعبير عن المعاني التي كانت السنة العرب الاصليين(٣٦).

---

(٣٣) المقدمة ٥٤٦

(٣٤) نفسه ٥٥٤

(٣٥) نفسه ٥٥٥

(٣٦) نفسه ٥٦١

ان حديث ابن خلدون عن الذوق وتفسير مصطلحه لدى اهل البيان يؤكد انه لم يرد في تفسيره لملكة الشعر او ملكة اللغة كونهما من الملكات الصناعية وانما اراد ترسيخ موهبة قول الشعر او فهم اللغة العربية والتكلم بها حسب نطق اهلها الصرحاء بها فقد حدد مصطلح الذوق بأنه (حصول ملكة البلاغة للسان) لدى المعتنين بفنون البيان ولما كانت البلاغة مطابقة الكلام للمعنى في جميع وجوهه . فالمتكلم بلسان العرب والبليغ ممن يتحرى الهيأة المفيدة لذلك على اساليب العرب وانحاء مخاطباتهم . وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا اتصلت مقاماته بمخاطبة العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام . ان يصف ابن خلدون هنا للبليغ الذي حصلت له الملكة يعني انه كان ذا موهبة وقدرة على البيان الا ان اطلاعه على اساليب العرب جعل كلامه اقرب الى كلامهم (حتى لايكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب . وان سمع تركيبا غير جار على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر وبغير فكر الا بما استفاد من حصول هذه الملكة . فأن الملكة اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنه طبيعية وجبلة(٣٧) .

ويفضل ابن خلدون في كيفية ترسيخ الملكة وتأهيل الذوق السليم وانه لايتأتي للمرء بحفظ قوانين اللغة المستنبطة من اهل صناعة اللسان لان هذه القوانين لاتفيد علما بهذا اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها . وانما يتأتى الذوق البلاغة بحفظ كلام العرب واشعارهم وخطبهم والمدارسة على ذلك بحيث تحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم . وربى بين اجيالهم . واستعير لهذه الكلمة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق ويكون التفاوت في مستوى اذواق المتكلمين والبلغاء بمقدار رسوخ ملكاتهم الشعرية واللغوية وبقدر تهذيب طباعهم . وادامة تظرهم في الشعر العربي الجيد فعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة للحافظ . فمن كان محفوظه شعر حبيب او العتابي او ابن المعتز او ابن هانيء او الشريف الرضي او رسائل ابن المقفع او سهل بن هارون او ابن الزيات . تكون ملكته اجود واعلى مقاما ورتبته في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين او ابن النبيه او ترسل البيساني او العماد الاصفهاني لنزول طبقة هؤلاء عن اولئك يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق وعلى مقدار جودة المحفوظ او المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم اجادة الملكة من

---

(٣٧) المقدمة ٥٦٢

بعدهما . فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة لان الطبع انما ينسج على منوالها وتنمو قوى الملكة بتغذيتها(٢٨) .

ويميز ابن خلدون من نشأ في البيئة العربية الخالصة . ومن ينشأ في بيئة اخرى دخلتها العجمة او هو اعجمي اصلا . فالاول اذا ادام النظر في الاساليب العربية وحفظ جيد الاشعار والاقوال حصلت له الملكة ورسخت اساليب العرب في ذهنه والثاني من الداخلين على اللسان العربي فأنه وامثاله لايحصل لهم الذوق لقصور حظهم من هذه الملكة بسبب غلبة لغاتهم الاصلية على طباعهم مما يحول بينهم وبين تفهم العربية واخذها اخذ اهلها وابنائها الصرحاء (فأن عرض لك ما تسمعه من ان سيبويه والزمخشري وامثالهم من فرسان الكلام كانوا اعجاما مع حصول هذه الملكة لهم فاعلم ان اولئك القوم الذين تسمع عنهم انما كانوا عجما في نسبهم فقط فأما العربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم . فأستولوا بذلك من الكلام على غاية لاشيء وراءها . وكأنهم في اول نشأتهم من العرب الذين نشأوا في اجيالهم حتى ادركوا كنة اللغة وصاروا من اهلها)(٢٩) اما الذين تمكنت منهم لغة اخرى قبل اخذهم اللغة العربية وتعلمهم لها فأن الملكة العربية لاتحصل لهم لان الاولى سبقتها في الرسوخ فاذا حصلت الملكة حصلت ناقصة مخدوشة .

وبذا يتضح لنا رأي ابن خلدون في شأن الملكة اللغوية والموهبة الشعرية ورسوخها وفيهما يظهر ابن خلدون اخلاصه للغة العربية واعجابه بأساليب العرب . ورغبته الخالصة في تعليل سبب شيوعها وانتشارها ورسوخها وتفاوت ذلك من جيل الى جيل . ومن عصر لاخر منطلقا من مبدئه العام في ذلك وهو ان الملكات اللسانية يمكن ان تترسخ بادامة النظر في الاساليب العربية الجيدة . وبذا يقرب ابن خلدون في هذه الدعوة من رأي ابن طباطبا ودعوته الى تهذيب الطبع بالاطلاع على جيد الشعر العربي الا انه اضاف اليه نظرة شمولية في تفسيره لتطور ملكة الشعر واللغة وسائر الملكات الاخرى في النفس الانسانية مستوعبا آراء النقاد الذين سبقوه ومتجاوزا نقل الروايات الحرفية عنهم الى وعي شامل ونظرة عامة الى مجموع الشعر العربي والنتاج الادبي شأنه في ذلك شأن تفسيراته وتحليلاته المهمة في ميدان

---

(٢٨) المقدمة ٥٧٨

(٢٩) المقدمة ٥٦٤

التاريخ الاجتماعي وما سماه بالعمران مما جعل له خصوصية في طريقة البحث . ومعالجة القضايا التي تثير انتباهه وتحتاج الى تعليل ونظرة شاملة الى طبيعة النفس الانسانية من جهة والمجتمع العربي الاسلامي من جهة اخرى .

تم بعون الله
تعالى